مشروع بحث حول:

فقه سنن العمران البشري في القرءان الكريم

مدخل لتحقيق الشهود الحضاري

إعداد:

الطالب الباحث

حميد الرباع

مشروع بحث حول:

فقه سنن العمران البشري في القرءان الكريم

مدخل لتحقيق الشهود الحضاري

تمهيد

القرآن الكريم كتاب يفسر نظام الوجود من الذرة إلى المجرة، ومن البحر المسجور إلى البيت المعمور، وهو "كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير" (هود الآية 1)، إنه"كتاب الله، فيه نبأ ما كان قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، وهو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قسمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، هو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، هو الذي لم تنته الجن إن سمعته حتى قالوا:"إن سمعنا قرآنا عجبا، يهدي إلى الرشد"(الجن الآية1-2)، من قال به صدق ومن عمل به أجر، ومن دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم" (أخرجه الترمدي)، قال عنه الحق سبحانه:"ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين"(النحل89)، وهو روح الكون "وكلك أوحينا إليك روحا من أمرنا"(الشورى52).

ومن هنا فهو يمثل الأساس الأول للمعرفة الإسلامية في شتى مجالاتها، فهو أصل الأصول والمصدر الأول والأهم للمسلم، يرجع إليه ليستقي منه كل ما ينفعه في دنياه وآخرته "إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم"(الإسراء الأية9).

من هذا المنطلق جاء التوجه للبحث في القرآن الكريم عن فقه سنن العمران البشري، من خلال دراسة آيات سنن العمران، باعتباره المدخل الرئيسي لفهم واقع المجتمعات الإسلامية، والقدرة على استشراف آفاق المستقبل. و تحقيق الشهود الحضاري للأمة.و قد قسمته إلى ثلاثة مباحث أساسية :

أولا: الدرس القرآني بين التقليد وضرورة التجديد

إن واقع معظم المسلمين اليوم مع القرآن الكريم مؤرق وحزين، وعلاقاتهم به يحكمها الهجر والعقوق، حتى كاد ينطبق علينا قول الله :" ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أماني" (البقرة الآية)78، أي لا يعلمون من الكتاب إلا التلاوة والترتيل، فلا يعرفون معاني، ولا يفهمون حكمه ومقاصده ولا يتدبرون آياته.

وهكذا ركزت الدراسات القرآنية التي تمثل بوصلة حياة المسلم اهتماماتها لقرون طويلة على طرق التلاوة وحسن الترتيل، فوضعت علم قواعد التجويد، وبنيت أوجه التشابه والاختلاف بين القراءات القرآنية المختلفة.. وإذا كان ذلك كله من حقوق القرآن علينا امتثالا لقوله تعالى "ورتل القرآن ترتيلا"، إلا أن الاقتصار على ذلك وإغفال جانب التدبر والتفكر، فصل غير مبرر ومرفوض بين التلاوة والتدبر فالله تعالى يقول: "كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب" (ص الآية 29) وكان من نتائج ذلك أن غاب الفقه القرآني الحضاري، وتحول القرآن إلى وسيلة للتزيين أو القراءة على الأموات أو لعلاج الأمراض المستعصية وهي قراءات لا تتجاوز الشفاه !؟ وقد نتج عن ذلك اضطراب في منهج التعامل مع القرآن الكريم فهما وممارسة.

لقد اهتم المسلمون عبر تاريخهم الطويل بالقرآن وعلومه وبالحديث وأقسامه، لكنهم وللأسف أغفلوا واقع الناس ولم يولوه الاهتمام اللازم مع إقرارهم أن الفتوى تتغير بتغير الزمان والمكان. وقد وقع بسبب التقصير في ذلك ظلم شديد للبلاد والعباد، وأصبح النص الديني بعيد عن حياة الناس، وبدأ الفصام النكد بين الشريعة والحياة. و أصبحت حياة المسلمين تمثل الوجه المقلوب و المخالف للرؤية القرآنية، و هذا ما زاد من تعقيد واقع العلاقة بين المسلم و النص القرآني، و انتشرت سلوكيات و أفكار بعيدة كل البعد عن روح القرآن و مقاصده العامة.و من هنا برزت ضرورة تجديد منهج التعامل مع القرآن الكريم ،و مراعاة التطورات التي عرفتها مسيرة المجتمعات البشرية.

و الإسلام له موقف محدد و دقيق من التطور الاجتماعي، يبنى على أساس طبائع الأشياء، و قانون الفطرة...فالحقائق الإلهية المودعة في الشريعة لو خرجت الحياة عليها،و لم تصطبغ بصبغتها،و لم تتحرك في مجالاتها،لاضطربت و تزعزعت، فأصابها شلل يعطل سيرها.. وهذا معنى قول الله تعالى و لو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات و الأرض و من فيهن (المؤمنون 71) [1].

فالتغير و التطور وقائع اجتماعية ملازمة للحياة الإنسانية ،لكن الإسلام لم يتركها تعبث بحياة الناس،بل حدد لها قوانين تحكم حركتها و توجهها و تسخرها لخدمة البشرية. هذه القوانين هي بمثابة سنن للعمران البشري في كل زمان و

[1] د.محسن عبد الحميد "منه1ج التغير الاجتماعي في الإسلام" مؤسسة الرسالة ط 1 سنة 1403_1983 ص 62و 76 .

مكان. و القرآن الكريم قد نبهنا إلى وجودها، و أمرنا بضرورة فقهها و حسن التعامل معها

لكن الدراسات القرآنية اتسعت مباحثها و تشعبت في القضايا الفقهية حيث الحلال بين والحرام بين، بينما لم تحض مجالات الحياة الإنسانية بعلاقاتها الاجتماعية المعقدة وأحوالها المتقلبة والمتغيرة باستمرار، بنفس الاهتمام. ونتج عن ذلك نوع من الفقه بعيد عن واقع الناس، اصطلح عليه عند العامة "بفقه دم الحيض والنفاس" ! وغاب الفقه القرآني بمعناه الشامل. وتوهم البعض بأن التفاسير التي استمدت من القرآن في العصور الأولى هي كفاية المطاف، وأن إدراك أبعاد النص في القرآن مرتهن بها في كل زمان ومكان، وما رافق ذلك من النهي عن القول في القرآن بالرأي، وجعل الرأي دائما قرين الهوى، كل ذلك حال بين المسلم وتدبر النص القرآني، وأدى إلى إغلاق باب الاجتهاد والركون إلى التقليد. ، ولهذا نحتاج اليوم أكثر من أي وقت مضى إلى الاعتناء بأشكال الفقه الأخرى مثل: فقه سنن العمران البشري... بمنهج جديد لا يستنسخ منهج دراسة الأحكام الشرعية، لأن ذلك المنهج

في التعامل مع النصوص الشرعية خاصة القرآن يقضي على امتداده وخلوده وقدرته على العطاء المستمر والمتجدد زمانا ومكانا يقول تعالى: "وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين بشيرا ونذيرا" (سبأ 28)، ويقول أيضا: "ولكن رسول الله وخاتم النبيين" (الأحزاب 40).

لتحقيق هذه الفقه القرآني الحضاري الشامل، لا بد من تجديد مناهج الفهم الموصلة إلى التدبر و التفكر، و تجاوز القراءات التجزيئية للنص القرآني، و محاولة الجمع بين الكتاب المسطور و الكون المنثور. و لعل فقه سنن العمران البشري في القرآن الكريم يمثل المدخل الرئيسي لتحقيق ذلك.

ثانيا: سنن العمران البشري ومهمة الجمع بين القراءتين

إن كل ما يقع في الكون و النفس و المجتمع يخضع لقوانين الإلهية و سنن ربانية يتحرك وفقها، وتضبط مسيرته، بعيدا عن الصدفة التي تخبط خبط عشواء، أو الحتمية والجبرية التي تقيد حرية الإنسان وتشل حركته، فكل شيء يتغير ويتحرك ويتطور وفق إرادة الله ومشيئته المطلقة"وخلق كل شيء فقدره تقديرا" (الفرقان2)،"لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار، وكل في فلك يسبحون" (يس39)، لكنه سبحانه وتعالى منح الإنسان العقل والقدرة والإرادة على الفعل وتسخير الكون لخدمته فأمره بالعمل "وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون..." وبين له سنن التسخير، والتغيير والتحويل والإحياء والتمكين، والتحصين، والتحذير...، فإن هو استطاع توظيفها في حياته تمكن من توجيه حركة المجتمع لصالحه، وإن هو أغفل ذلك وأهمل استعمالها – ما هو حال أكثر المسلمين اليوم- فإنه سيصبح ضحية للتطور والتغيير المستمر، ومن هنا كان لزاما على المسلمين أن يكون عمرانهم البشري مبني على أساس فهمهم القرآني، لكن بدل الانطلاق من القرآن إلى العمران وقع العكس..."إن القرآن أساس كل بناء وكل عمران فلا نبني بناء، ولا نعمر تعميرا، إلا على أساس من كتاب الله وسنة رسول الله(ص) إن القرآن العظيم تعميم رباني راقي لبناء فخم ما كلف الإنسان إلا بإنجازه، على شموليته وامتداده، بدأ بعمران الإنسان، حتى عمران السلطان"[2] وصولا إلى عمران الاستخلاف الذي يشمل كل العمران البشري ويستوعب كل أبعاده الكونية.

---

[2] فريد النصاري "بلاغ الرسالة القرآنية من أجل إبصار لآيات الطريق" منشورات ألوان مغربية سلسلة اخترت لكم ص 8 .

إن قراءة كتاب الله المسطور (الوحي)، وقراءة كتاب الله المنظور(الكون).. الجمع بين هاتين القراءتان فقط كفيل بتجاوز الواقع الاجتماعي المريض. "فالقراءات في الوحي وفي الكون فريضتان، لأنهما أمران إلهيان والجمع بينهما ضروري غذ بدونه يقع الخلل.."[3] .

إن التدبر يكشف حقائق الآيات القرآنية (الوحي)، والتفكر يكشف حقائق الآيات الكونية(الكون)، حتى إذا استنارت هذه وتلك، أبصر المتدبرون والمتفكرون..ولذلك قال عز وجل: "قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه، ومن عمي فعليها وما أنا عليكم بحفيظ" (الأنعام 104). قال سبحانه"فاعتبروا يا ألوا الأبصار"(الحشر 2) 95.

فالجمع بين القراءتين تدبرا وتفكرا تثمر إبصارا، آنئذ يصبح المسلم يرى بنور الله تعالى، فيرى الحقائق وتشرق عليه شمس القرآن وتخرجه من الظلمات إلى النور بإذن ربها، فتلامس قلبه وعقله وجوارحه إشراقات القرآن الكريم."أفمن يمشي مكبا على وجه أهدى أمن يمشي سويا على صراط مستقيم"، إنه القرآن العظيم يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام.

لذلك فمشكلتنا اليوم ليست بافتقاد مصدر المعرفة، لأن القرآن الكريم تكفل الله سبحانه وتعالى بحفظه"إن نحن نزلنا الذكر وإن له لحافظون"، بل إن أساس أزمتنا وجوهر مشكلتنا في افتقادنا وسائل الفهم الصحيحة وطريقة التعامل مع النص القرآني، أي منهج فقه القرآن."والفقه في نظر القران يشمل الفقه في أمر الله وشرعه، كما يشمل الفقه في سننه وخلقه، ولهذا وصف القرآن المشركين

---

[3] طه جابر العلواني " الجمع بين القراءتين :قراءة الوحي وقراءة الكون" سلسلة إسلامية المعرفة عدد22 المعهد العالمي للفكر الإسلامي ط1 القاهرة 1996 ص13 .

والمنافقين بأنهم"قوم لا يفقهون" وقال بعد إن ذكر بعض آيات الله في الكون"قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون" "[4].

إن كتب الفقه تشكل معظم الثقافة الإسلامية...والفقه هنا ليس بمعناه العام الذي ورد في القرآن والذي يعني الحياة، وإنما الفقه في معناه الاصطلاحي: استنباط الأحكام الشرعية من أدلتها التفصيلية، ولهذا نحتاج اليوم أكثر من أي وقت مضى إلى الاعتناء بأشكال الفقه الأخرى مثل: فقه العمران البشري.

إن الحكم التشريعي إنما يجيء ثمرة للوجود والبناء الإسلامي، بمعنى أن الحكم التشريعي لا ينشئ المسلم، ولا ينشئ المجتمع، وإنما ينظمه ويحميه.. ولعل ذلك كان سبب تأخر الآيات التشريعية إلى الفترة المدنية لتكون ثمرة لوجود فرد وجماعة وأمة وحضارة...أما أن يكون الحكم التشريعي هو الأول والآخر، فاعتقد أنه منهج خاطئ في النظر إلى القرآن والتعامل معه، على أهمية الفقه التشريعي وأهمية معرفة الحلال والحرام 97.

إن النص القرآني، قد فسر وشرح من وجهة نظر لغوية، وبلاغية وفقهية، ولم يأخذ حقه من الدراسة باعتباره كتابا يوجه حياة الناس. والقراءات التي تقوم على النظرة اللغوية، والفهم المعتمد على تردد البصر بين الآية والمعجم اللغوي بطريقة آلية، لن تساهم في تحقيق الوعي الحضاري العمراني بالقرآن المؤسس للشهود الحضاري لأمة القرآن.

---

[4] يوسف القرضاوي الاجتهاد والتجديد بين الضوابط الشرعية و الحاجات المعاصرة" ضمن كتاب فقه الدعوة ملامح وآفاق سلسلة كتاب الأمة عدد 19 ص188 ط 1 .

و عندما اضطربت علاقة القرآن بالعمران ، و أصبح المسلمون يؤسسون عمرانهم حسب أهوائهم الفكرية و السياسية و الإجتماعية ، ثم يبحثون في القرآن الكريم عن تأصيل لسلوكاتهم المنحرفة ، و عندما لا يجدون فيه ما يوافق أهواءهم يطالبون بتغيير النص القرآني لكي يساير واقعهم الإجتماعي .

لقد كان الاولون يقرؤون القرآن فيرتفعون إلى مستواه .. أما نحن فنقرأ القرآن فنشده إلى مستوانا وهذا ظلم لكتاب الله تعالى .. إن القرآن كتاب يصنع النفوس و الأمم و يبني الحضارة .. هذه قدرته .. هذه طاقته .. فأما أن يفتح المصباح فلا يرى أحد النور لأن الأبصار مغلقة ، فالعيب عيب الأبصار التي أبت أن تنتفع بالنور ، والله تعالى يقول : " قد جاءكم من الله نور و كتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام " (المائدة 15-16) [5]. من هنا يمكن القول أن فقه الواقع الإجتماعي شرط أساسي لفقه النص القرآني في أبعاده المختلفة ، وغاية ذلك توجيه السلوك الإجتماعي وفق الرؤية القرآنية وليس العكس ، لأن القرآن ليس كتاب عقائد و عبادات و أخلاق فقط ، بل إنه كتاب شامل و منهج متكامل للحياة الإنسانية . و إن ما تعيشه المجتمعات الإسلامية اليوم من تدهور و تفكك و انحلال ، لا يرجع إلى النص القرآني بل إلى الواقع الاجتماعي الذي يتطور و يتغير بعيدا عن الوحي ، بالاضافة إلى ضعف علاقة المسلمين بالقرآن فهما و ممارسة . و صدق الشاعر حين قال :

نعيب زماننا و العيب فينا *** و ما لزماننا عيب سوانا

و انا اقول اقتباسا :

---

[5] محمد الغزالي كيف نتعامل مع القرأن الكريم "مدارسة مع ذ عمر عبيد حسنة" منشورات المعهد العالمي للفكر الاسلامي .

نعيب قرآننا و العيب فينا ***و ما لقرآننا عيب سوانا .

"فالمنهج القرآني في بحثه لمشكلات التقدم و التخلف المادي عند الناس ، يواجهها كمشكلة أقوام ، لا مشكلة دين و عقيدة ، و إنما مشكلة صلة بدين" [6].

لهذا كله نحتاج إلى تجديد صلتنا بالقرآن الكريم، واقتحام عالم السنن النفسية والاجتماعية والتاريخية حتى نكتشف من خلالها التفسير الصحيح للأزمة التي تمر بها المجتمعات الإسلامية، والطريق لعبور هذه الأزمة. إن فقه العمران البشري ضرورة حضارية لكل أمة تريد أن يبقى لها دور متميز في التاريخ، وإن إهمال فقه الواقع الاجتماعي وإدراك السنن النفسية والقوانين التاريخية الفاعلة في المجتمعات هو باب الشر الأكبر على المجتمع كله, أما إعمال الواقع فإنه يمكننا من فهم واقعنا، ويعيننا على استشراف آفاق المستقبل، النتيجة أن كل ما يقع في الكون والنفس والمجتمع يخضع لقوانين إلهية وسنن ربانية يتحرك وفقها، وتضبط مسيرته، بعيدا عن الصدفة التي تخبط خبط عشواء، أو الحتمية والجبرية التي تقيد حرية الإنسان وتشل حركته، فكل شيء يتحرك ويتغير ويتطور وفق إرادة الله ومشيئته المطلقة "وخلق كل شيء فقدره تقديرا" (الفرقان2)، "لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار، وكل في فلك يسبحون" (يس 39)، لكنه سبحانه وتعالى منح الإنسان العقل والقدرة والإرادة على الفعل وتسخير الكون لخدمته فأمره بالعمل "وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون..." وبين له سنن التسخير، والتغيير والتحويل والإحياء والتمكين، والتحصين، والتحذير...، فإن هو استطاع توظيفها في حياته تمكن من توجيه حركة المجتمع لصالحه، وإن هو اغفل ذلك وأهمل استعمالها

---

[6] جودت سعيد حتى يغيروا ما بأنفسهم" دار الثقافة للجميع سوريا ط3 1975 ص33 .

–ما هو حال أكثر المسلمين اليوم- فإنه سيصبح ضحية للتطور والتغيير المستمر. ومن هنا كان لزاما على المسلمين أن يكون عمرانهم البشري مبني على أساس فهمهم القرآني، لكن بدل الانطلاق من القرآن إلى العمران وقع العكس...

إن قراءة كتاب الله المسطور (الوحي)، وقراءة كتاب الله المنظور (الكون) كمصدر للمعرفة البشرية المتزنة الواعية..الجمع بين هاتين القراءتين كفيل بتجاوز الواقع الاجتماعي المريض. فالجمع بين القراءتين تدبرا وتفكرا تثمر إبصارا، آنئذ يصبح المسلم يرى بنور الله تعالى، فيرى الحقائق، وتشرق عليه شمس القرآن، وتخرجه من الظلمات إلى النور بإذن ربها، فتلامس قلبه وعقله وجوارحه إشراقات القرآن الكريم. "أفمن يمشي مكبا على وجهه أهدى أمن يمشي سويا على صراط مستقيم"، إنه القرآن العظيم يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام.

إن القرآن شفاء للمؤمنين يقول تعالى : " و ننزل من القرآن ما هو شفاء و رحمة للمؤمنين ". لكن هذا الدواء الرباني لا يتحقق تأثيره و مفعوله إلا عندما نحسن استعماله ، اما عندما نجهل طريقة الاستعمال ، و نتعامل معه حسب أهواءنا ، فإنه و مما لا شك فيه يفقد تأثيره على النفوس ، و لعل هذه الصورة تنطبق على علاقتنا بالقرآن الكريم انطباقا كليا .

نحتاج اذا إلى تجديد صلتنا بالقرآن الكريم ، و صياغة منهج جديد للتعامل معه وفق رؤية شاملة تقوم على فقه النص القرآني في أبعاده المختلفة تحقيقا لمقاصد الشرع الكلية في جلب المصالح للعباد و درء

المفاسد عنهم ، و هذا يتطلب منا قراءة جديدة لواقعنا الاجتماعي بأبجدية سليمة تعين على فهمه و حسن تنزيل النص القرآني عليه . فقه النص القرآني و فقه الواقع الاجتماعي هما الجناحين الذين يحلق بهما القرآن الكريم، و غياب أحدهما يؤثر على الى الآخر.

و توهم البعض بان التفاسير التي استمدت من القرآن في العصور الأولى هي كفاية المطاف ، و ان إدراك أبعاد النص في القرآن مرتهن بها في كل زمان و مكان ، كل دلك حال بين المسلم و تدبر النص القرآني ، و أدى إلى إغلاق باب الاجتهاد و الركون إلى التقليد.

إن أحكام القرآن تجمع بين التوابت و المتغيرات ، و إذا كان ما هو تابت لا يتغير مع مرور الزمن ، فإن مجال المتغيرات يحتاج إلى فقه متجدد و اجتهاد مستمر لتحقيق مقاصد الشرع في الاجتماع البشري و حفظ مصالح المجتمع و درء المفاسد عنه ." و يستلزم هذا إطلاع المجتهد على أحوال مجتمعه ،و إلمامه بالأحوال العامة لثقافة عصره بحيث لا يعين في واد و المجتمع من حوله في باب آخر ..و المجتهد الحق هو الذي ينظر إلى النصوص و الأدلة بعين الاعتبار ، و ينظر إلى الواقع و العصر بعين أخرى حتى يوائم بين الواجب و الواقع، و يعطي لكل واقعة حكمها المناسب لمكانها و زمانها و حالها "[7].

[7] يوسف القرضاوي المرجع السابق ص160 .

إن القرآن الكريم رسالة الرحمة إلى الناس أجمعين ، و مقتضى الرحمة تحقيق مصالح العباد في الحال و المآل . الانطلاق من هذه الرؤية تجعلنا نفهم نصوص القرآن فهما مصلحيا و نطبقها تطبيقا مصلحيا."و التفسير المصلحي للنصوص معناه النظر و البحث في مقاصد النصوص و المصالح المتوخاة من أحكامه ، ثم تفسيرها و استخراج معانيها و مقتضياتها وفق ما لاح من مقاصد و مصالح ..و هذا التفسير ليس سوى إعمال للأصل المقرر ، و هو أن الشريعة مصالح كلها و رحمة كلها ...

و التفسير المقاصدي المصلحي للنصوص يزيل من أمامنا قدرا من دعاوى تعارض النص و المصلحة [8].

و تدعو الضرورة الواقعية في الواقع الإسلامي الراهن إلى التركيز على المقاصد الشرعية ذات الصبغة الاجتماعية ، و إحلالها في منظومة المقاصد الموقع المهم ...، و توجيه مناهج الكشف و الاستجلاء توجيها يساعد على ذلك ، حتى تكون الصياغة المقاصدية للشريعة محققة في الواقع للأغراض الاجتماعية حيث أصبحت الحياة اليوم تمتد فيها العلاقات الاجتماعية وتتكثف بما لم يكن معهودا من قبل ، فتنشا من النوازل و الأوضاع ذات الصبغة الاجتماعية ما يستلزم تنزيل الشريعة عليها تنشيط البحث في المقاصد الشرعية الاجتماعية لصياغة الأحكام

[8] أحمد الريسوني النص والمصلحة بين التعارض والتطابق" مجلة إسلامية المعرفة عدد13 السنة 4- 1998 .

بحسبها ، و توجيهها في سبيل إثراء الفقه الاجتماعي و إنضاجه ...إن للدين غاية اجتماعية، فمصلحة الإنسان التي هي المقصد الأسمى للشريعة لا تتحقق إلا في النطاق الاجتماعي [9].

هذا الاجتهاد المقاصدي أحد الأدوات الرئيسية لفقه النص القرآني و حسن تنزيله، و هو يشكل الضابط المنهجي و العمق الثقافي للرؤية المستقبلية في المجال التشريعي و العمراني. و هو شرط أساسي لفقه سنن الإجتماع البشري في القرآن الكريم. وهذا المنهج في التعامل مع النص القرآني وجد بوادره الأولى في العصر الحديث مع الاتجاه الاجتماعي في التفسير[10]الذي وجد نفسه ملزما بقضايا الأمة و مشكلاتها الثقافية و الاجتماعية و السياسية...، فجدد المنهج و الاتجاه ، و استأنف مسيرة العطاء ، و يعتبر "تفسير المنار" للشيخ محمد رشيد رضا ، و "في ظلال القرآن " للشهيد سيد قطب معالم بارزة في مسيرة التجديد و الاجتهاد في تفسير الحديث ، و نماذج مشرقة للفقه القرآني العمراني ، أكدت أن القرآن العظيم نص مطلق يستطيع الناس أن يفهموه في كل عصر ، و في كل مكان، بطريقة تجعلهم قادرين على معالجة مشكلاتهم انطلاقا من هديه و توجيهه ، و لعل ذلك هو السبب في اقتران صفة الكرم بالقرآن ، لان

---

[9] عبد المجيد النجار المقتضيات المنهجية لتطبيق الشريعة في الواقع الإسلامي الراهن مشورات مركز دراسات المستقبل الإسلامي عدد2 دار المستقبل ص61و80.

[10] أنظر محمد سايسي " الاتجاه الاجتماعي في التفسير في العصر الحديث" أطروحة دكتوراه الدولة في الدراسات الإسلامية موسم 2000-2001 تحت إشراف د عبد السلام الهراس

الكرم عطاء متجدد، و الكريم هو من يعطي عطاء من لا يخشى الفقر ، إنه القرآن الكريم.

ثالثا: سنن العمران والشهود الحضاري

إن فقه سنن العمران البشري في القرآن الكريم له أهمية كبرى في توجيه الإنسان المسلم إلى القوانين التي يتأسس عليها البناء الاجتماعي، وتلعب دورا مهما في تنبيهه إلى سنن النهوض وعوامل السقوط من أجل قراءة واقع المجتمعات الإسلامية بأبجدية سليمة تتأسس على حسن تدبر القرآن الكريم والتفكر في آياته، وإبصار حقائقه واكتشاف سنن الله في الأنفس والآفاق، وحسن تسخيرها ومعرفة كيفية التعامل معها لبناء حضارة إنسانية راشدة. وهذا الفقه يتأسس على حسن قراءة النص القرآني واستيعاب الواقع الاجتماعي، وبالتالي ضرورة الجمع بين القراءتين أي فقه النص وفقه الواقع، ليس بغرض تبرير هذا الواقع وإنما من أجل إصلاحه وتوجيهه على ضوء الرؤية الإسلامية.

إن العودة إلى آيات سنن العمران في القرآن الكريم ودراستها بدقة والنظر إلى مآلاتها وعواقبها في النفس والمجتمع، لن تتحقق إلا من خلال تجديد علاقتنا بالقرآن الكريم، وإدراك أبعاد النص القرآني المختلفة وعدم حصرها في النواحي الفقهية التشريعية، لأن ذلك يقضي على امتداده وخلوده وقدرته على العطاء المتجدد زمانا ومكانا.

و عندما نجدد منهج التعامل مع القرآن الكريم، ونحسن فقه سنن العمران البشري ، يكون ذلك مدخلا أساسيا لتحقيق الشهود الحضاري ،الذي يمثل الوظيفة المركزية لهذه الأمة مصداقا لقوله تعالى" و كذلك جعلناكم أمة وسطا، لتكونوا شهداء على الناس و يكون الرسول عليكم شهيدا "(البقرة: من الآية143).

إن الاجتماع البشري كما تبين، يخضع لسنن قد عرض لها القرآن الكريم، وأكدها من خلال تاريخ البشرية الطويل، و هي تبين أن الله لم يخلق

الناس عبثاً ، وأن من يعمل سوءاً يجز به ، وأن إنجاز الشهود الحضاري له شروطه ومقدماته وأسبابه ، وهو ليس عبارة عن أماني يتمناها المرء ثم يتواكل ،و ينتظر المعجزات، و القرآن الكريم نبه إلى ذلك و أقر أنه "ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب من يعمل سوءاً يُجْزَ به ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً "(النساء:123) .. هذا قانون الله، و تلك سنته التي لا تبديل لها و لا تحويلا.

لقد ربط القرآن إمكانية إنجاز الشهود الحضاري بمعرفة الأسباب، وكشف السنن، التي تحكم الإنسان و المجتمع و العالم، وقدم القرآن الكريم ذو القرنين أنموذجاً متجسداً لربط الأسباب بالمسببات ، والمقدمات بالنتائج ، واعتبر ذلك مقدمة لابد منها للنهوض و الشهود الحضاري ، وبذلك لم يكتف القرآن بتأكيد موضوع السنن نظرياً ، بل إنه قدم مثالا تطبيقيا .

فذو القرنين الذي آتاه الله من كل شئ سبباً فأتبع سبباً، وكان له التمكين في الأرض لأنه عرف السنن وانضبط بها: سار في الأرض وكانت مساحة رحلته من مشرق الشمس إلى مغربها، وتعرف من خلال هذا السير إلى أسباب العجز الحضاري، والتحديات والمعاناة التي تواجه البشر، وأيقن بضرورة توفير الظروف والشروط التي تكسبهم المنعة، فكان أشبه بالمهندس الذي عرف أسباب التردي، ووسائل التمكين، في الأرض، ووضع الخطط، وأشرط الأيدي العاملة، واستحضر المواد المطلوبة لإتمام عملية الإنجاز.. وقد تكون العودة إلى النص القرآني والوقوف أمام هذا الأنموذج بدون حواجز، أدعى إلى التأمل المطلوب: قال تعالى: (ويسألونك عن ذي القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكراً إنا مكنا له في الأرض وآتيناه من كل شيءٍ سبباً * فأتبع سبباً * حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب في عين حمئة ووجد عندها قوماً قلنا ياذا القرنين إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسناً * قال أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد إلى ربه

فيعذبه عذاباً نكراً ، وأما من آمن وعمل صالحاً فله جزاءً الحسنى * وسنقول له من أمرنا يسراً * ثم اتبع سبباً * حتى إذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها ستراً كذلك وقد أحطنا بما لديه خبراً * ثم أتبع سبباً حتى إذا بلغ بين السدين وجد من دونهما قوماً لا يكادون يفقهون قولاً قالوا ياذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض فهل نجعل لك خرجاً على أن تجعل بيننا وبينهم سداً قال ما مكني فيه ربي خير فأعينوني بقوة أجعل بينكم وبينهم ردماً * آتوني زبر الحديد حتى إذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا حتى إذا جعله ناراً قال آتوني أفرغ عليه فطراً * فما استطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقباً)(الكهف: 83-97).

إن عملية الشهود الحضاري، والقيام بالدور المطلوب على مستوى الحضارة الإنسانية، وامتلاك القدرة على تنزيل القيم في الكتاب والسنة على واقع الناس، وتقويم سلوكهم ومجتمعاتهم بها، وإبداع البرامج والأوعية لحركة الحياة، من خلال منطلقات إسلامية، واستيعاب التجربة الحضارية التاريخية والإحاطة بعلم مرحلة السيرة وخير القرون، محل القدوة والتأسي، وتحديد الموقع المناسب لواقع الحياة اليوم من مسيرة السيرة، ليتم الإقتداء المناسب، ويؤتي ثماره بعيدًا عن الحماس والادعاء، يتطلب أول ما يتطلب الشهود على الذات، أو الشهادة على الذات، أو الوعي بالذات، وإعادة المعايرة لها، والشهادة عليها، وتقويمها بقيم الكتاب والسنة، وتحديد مواطن الإصابة والخلل الذي لحق بها، والتعرف على أسبابه والسنن الذي تحكمه، وعدم الاكتفاء بالشكوى والتبرم وملاحظة الأثر والعرض، ومن ثم تحديد الاستطاعة أو تحديد الممكن أو المستطاع، بالمصطلح الشرعي، في هذه المرحلة.فلا نستطيع تحقيق الشهود الحضاري، لا على أنفسنا ولا على (الآخر)، إذا كان الكثير من شعب

المعرفة التي يتطلبها بناء المجتمع وشهوده، وتقتضيها وظائفه غائبة ومؤذنة بتمدد (الآخر).

إن غياب فقه الاستطاعة، أو غياب فقه المحل، وعدم إدراك مواصفات الخطاب القرآني بحسب محاله، أدى إلى لون من العجز عن التعامل مع القرآن، والفوضى في إدراك خطابه... والاستشهاد به في غير محاله، أدى إلى الكثير من الضياع والبلبلة الفكرية، والكوارث الاجتماعية، والإحباطات والأزمات النفسية، كما أدى إلى العجز عن الشهود الذاتي والشهود على (الآخر)، أو الشهود الحضاري بشكل عام.

إن ملف الشهود الحضاري هو الملف المفتوح باستمرار، على مستوى الذات وعلى مستوى (الآخر)، على حد سواء، بعد تحقق الوعي بأن الركائز الحضارية المؤهلة للحياة والاستمرار هي عالم الأفكار، ذلك أن عالم الأشياء بكل أبعاده لا يخرج عن أن يكون تجليًا لعالم الأفكار وناقلاً ومجسدًا له. فالغياب الحضاري، الذي يتولد عن عدم وعي الذات ووعي (الآخر) والتحقق بمعايير الشهود الحضاري، يعني الموت والخروج من ساحة الشهود.. كما أن فقدان معايير الشهود يعني السقوط والارتماء الحضاري، أو العمى الحضاري.. إضافة إلى أن عدم وعي (الآخر) يعطل مهمة الشهود وإلحاق الرحمة بالعالمين[11].

[11] ذ.عمر عبيد حسنة ،تقديم كتاب "نحن و الحضارة و الشهود"للدكتور نعمان عبد الرزاق السام رائي، الجزء الأول.

إن الإشكالية الأساس في تحقيق الشهود الحضاري، الذي يؤهل لخيرية الأمة ، و قيادة البشرية ، هي في القدرة على استصحاب قيم القرآن الكريم و حسن قراءة واقع الأمة بأبجدية سليمة ، و وعي سنني، يفهم الحاضر ويستحضر دروس الماضي و يستشرف آفاق المستقبل، أما من كان في حاضره أعمى فهو في مستقبله أعمى و أضل سبيلا.ولهذا فإن من مقومات الشهود الحضاري ومستلزماته أن يتحقق المسلمون بالفقه القرآني الحضاري و يتحققون بالوعي السنني.

فمن معاني تلك الشهادة: أن الشاهد لابد أن يكون عالماً بما يشهد به علماً يقنع الآخرين بالحجج والدلائل الواضحة. كما عليه أن يبينه ويظهره للآخرين. و يبلغه لمن يحتاجونه و ينتفعون به. كذلك العدل والأمانة في تبليغ الشهادة، فهي من أهم صفات الشاهد المبلّغ.

كما أن فقه السنن العمرانية يعين المسلم على فقه سنن التداول الحضاري ، التي قررها القرآن الكريم في قوله تعالى (وتلك الأيام نداولها بين الناس)(آل عمران:140) والتي تعتبر معرفتها شرطاً أساسياً للتبصر بالعواقب ، وتؤهل معرفتها إلى تسخيرها والتمكن من إنجاز الشهود الحضاري ، و لا يتأتى ذلك إلا من السير في الأرض ، الذي فرضه الله على المسلم بقوله: (قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل. .)(الروم:30).

فالسنن بمعنى القوانين المطردة والثابتة، التي تحكم حركة الإنسان و المجتمع و العالم، وتحكم حركة التاريخ، تتحكم بالدورات الحضارية، بما يمكن أن نسميه بالميكانيكا الاجتماعية.

ختاما

تبين من خلال ما سبق أن فقه سنن العمران البشري يمثل المدخل الأساسي لتحقيق الشهود الحضاري، والقيام بهذه المهمة يستوجب نقلة نوعية للعقل المسلم، تجدد مناهج التعامل مع القرآن الكريم، بما يحقق عطاءه المستمر و المتجدد.

هذه بعض القضايا التي يريد هذا البحث إثارتها، والنتائج التي توصل إليها، وأملي أن تتاح الفرصة لهذا البحث لكي ينضج بالقدر الكافي ، و كلي أمل أن أتشرف بتوجيهاتكم ، و أستفيد من مواضيع هذه الدورة المباركة . و ما كان في هذا العمل من صواب فهو من الله تعالى وبتوفيقه وما كان فيه من خطأ أو تقصير فمن نفسي والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات... .

مصادر البحث:

1- د.محسن عبد الحميد "منهج التغير الاجتماعي في الإسلام" مؤسسة الرسالة ط 1 سنة 1403_1983.

2- فريد النصاري "بلاغ الرسالة القرآنية من أجل إبصار لآيات الطريق" منشورات ألوان مغربية سلسلة اخترت لكم.

3- طه جابر العلواني " الجمع بين القراءتين :قراءة الوحي وقراءة الكون" سلسلة إسلامية المعرفة عدد22 المعهد العالمي للفكر الإسلامي ط1 القاهرة 1996.

4- يوسف القرضاوي الاجتهاد والتجديد بين الضوابط الشرعية و الحاجات المعاصرة" ضمن كتاب فقه الدعوة ملامح وآفاق سلسلة كتاب الأمة عدد 19 ط 1 .

5- محمد الغزالي كيف نتعامل مع القرآن الكريم "مدارسة مع ذ عمر عبيد حسنة" منشورات المعهد العالمي للفكر الإسلامي .

6- جودت سعيد حتى يغيروا ما بأنفسهم" دار الثقافة للجميع سوريا ط3 1975 .

7- أحمد الريسوني النص والمصلحة بين التعارض والتطابق" مجلة إسلامية المعرفة عدد13 السنة 4- 1998 .

8- محمد سايسي " الاتجاه الاجتماعي في التفسير في العصر الحديث" أطروحة دكتوراه الدولة في الدراسات الإسلامية موسم 2000-2001 تحت إشراف د عبد السلام الهراس.

9- عبد المجيد النجار المقتضيات المنهجية لتطبيق الشريعة في الواقع الإسلامي الراهن. مشورات مركز دراسات المستقبل الإسلامي عدد2 دار المستقبل.

10- ذ.عمر عبيد حسنة ،تقديم كتاب "نحن و الحضارة و الشهود"للدكتور نعمان عبد الرزاق السامرائي، الجزء الأول.